الصحافة
Essahafa, jeudi 11 décembre 2014

ما تراه في اللوحة، هو ما يستيقظ في حواسك

منيرة محمد: ما تراه في اللوحة، هو ما يستيقظ في حواسك

مثلما ترسم جيّدا، تتحدث منيرة محمد جيّدا عن الحياة وعن الرسم وعن جماليات التلقّي، بصبر وذكاء تقود زوّار معرضها الى ما تقترحه لوحاتها بعيدا عن التلقي الإنطباعي الأول.«ثمة ما من قال لي إنّ نساءك حزينات أجبته برفق لا، السؤال الذي يتوجّب طرحه في الفن هو التالي: ماذا حصل وماذا عاشت النساء اللواتي رسمتهن قبل أن يصلن الى تلك اللحظة، ماذا حدث لهن حتى يصبحن في ذلك الموقف أنا لا أعرف». تقول منيرة بتواضع المرأة التي خيرت الحياة. «الحياة وعي بالحياة أساسا شغل وعمل في كل لحظة».درست منيرة الفرنسية وكانت ناشطة ضمن اليسار التونسي وجزءا من الشبيبة التي أنجزت المؤتمر 18 الخارق للعادة للاتحاد العام لطلبة تونس.«في جيلي كنا نؤمن بالثورة وحين انتقلنا من الشعار الى المؤسسة وأنجز المؤتمر الـ18 الخارق للعادة وجدت أنني لم أقم بالواجب المحمول عليّ ولم أواصل دراستي إذ اكتفيت بشهادة نهاية المرحلة الأولى. الكثير ممن انخرطوا في النضال السياسي وجدوا أنفسهم في مثل وضعيتي رغم أنهم أذكياء ويهضمون مواد الدراسة بسهولة، هذه الخيبة على المستوى الشخصي تزامنت مع وصول بن علي الى السلطة.قرّر أحد أصدقائي (أسوان عيساوي) أنه يتوجب على الأقل أن ينجو أحدنا، اشتغل طيلة عام كامل بمغازة حتى يوفّر لي ثمن التذكرة الى سويسرا.في ثالث يوم من وصولي الى جنيف وجدت نفسي ضمن جماعة تنتمي الى نفس الجيل من اليسار التونسي، كأنني لم أغادر تونس، ربّما لأن المرء لا يستطيع أن يكون إلاّ مع من يشبهه تدبروا لي شغلا وشقة أسكن فيها.

قماشة وعلبة ألوان

كنت أتصور أن أصبح كاتبة ولكن الهجرة والتعاطي مع لغات أخرى...» تسكت منيرة متفكرة ثم تستطرد:«كنت أخربش على الأوراق قال لي دومينيك، رفيق الدرب أنه عليّ أن أشتري قماشة وعلبة ألوان، أعتقد أنه ثمّة أدران في الكلام.معاني الكلمات تفلت سريعا رغم ثراء المعجم الذي أملكه وقدرتي على الاقناع، وهو معطى مشترك، إلا أنني أعتقد أن اللغة قد تنزلق بك الى الثرثرة لمجرد ملء الفراغ. لكي تقدم معنى حقيقيا يجب أن تعمل عليه، عندما أمسكت بالريشة ورسمت أحسست بسحر ما قمت به».

ما تراه في اللوحة

هناك من زوّار المعرض من صدم قليلا بسبب أن المعرض لا يحتوي الا على صور نساء وهناك من لاحظ أن الألوان قاتمة:«قلت لهم هل الأصفر والأحمر قاتمان؟ أنا اشتغل وأنجز لوحتي. ما تراه في اللوحة، هو ما يستيقظ في حواسك».رغبت منيرة بشدة في أن تعرض في تونس، «كوني كي تكون الحياة»، هو عنوان معرضها بدار الثقافة ابن رشيق (افتتح يوم 28 نوفمبر ويتواصل الى غاية 16 ديسمبر 2014).

بعيون مغمضة... مفتوحة

في اللوحات لا نرى إلاّ نساء، أحيانا بعيون مغمضة، أحيانا بعيون مفتوحة على اتساعها، يغضض من بصرهن أحيانا، ولكن اللافت أن عيون النسوة ينظرن خارج الإطار ثمة بهجة في الأزياء وفي الألوان (الأحمر والأزرق والأصفر) وثمة أيضا الدكنة والعتمة وليل الأعماق الداخلية لا تحتاج الى الأفكار الى قراءة اللوحات، نحتاج فقط الى الإحساس الكثيف بحركة الحياة البسيطة، المتواضعة والسرية، التي تسري من خلف وضعيات نساء منيرة محمد «الجامدة»، او التي توهم بكونها جامدة.تنبّه الكتابة والفنانة السويسرية هايكه فيدلر في مقال لها عن معرض منيرة محمد، الى ضرورة عدم الإنخداع بوضعية الجلوس الغالبة على نساء اللوحات، لأنّ وضعيتهن تلك «ليست أبدا صورة عن سلبية ما، كما انّ الأذرع المتشابكة او المسترخية ليست علامة استسلام، على العكس، فإنّ كل لوحة تموج بالحياة بسبب حيوية ضربات الريشة التي تجعل نظرتنا متحركة، في هذا الفضاء اليبني، بين الحركة والسكون، يكمن الهدوء والدّعَةُ.لذلك، فإنّ كلّ واحدة من أولئك النسوة، تبدو كما لو أنّها في موقف انتظار، واستعداد لأفعال محتملة، ليس صدفة، انّ لعبة الضوء تشرق على الأذرع وعلى الأيادي، أدوات الإنسان، بامتياز، للفعل الملموس..».تنتبه حساسية منيرة محمد إلى التفاصيل الصغيرة. ومثلما تذهب الى المفاهيم المجردة كأن تستشهد في حديثها بجيل دولوز أو بمارلو بونتي، تذهب ايضا الى الملاحظة الحية وتعلّق وتحلل ردّات فعل زوّار معرضها: «قالت لي احدى الزائرات لم أجئ إلى المعرض لأرى ما يشبه جدتي! قلت لها لماذا نخاف من الأشياء التي نعرفها؟».

عن أولئك الذين سبقونا

وتستطرد قائلة: «نحن ممتلئون بالذين أبدعوا قبلنا، من سبقني من الرسامين يعملون داخل الذاكرة دون وعي، يغنون معي، يزورونني وأحيانا يتركون هبة ما. أنت تواصل تقليدا تشكيليا ما. اما عن نساء اللوحات فهن يشبهن التونسيات ولكنّهن ينتمين أيضا الى الذاكرة الجماعية.نسائي يشبهن أيضا اللاجئات السوريات واليزيديات الهاربات من ممارسات خلنا أنها اندثرت كأنهن خارج زماننا، قد يكن أيضا مكسيكيات او يوغسلافيات، ينتمين الى «باقي العالم».حضرت مرة في فرنسا دورة في كرة القدم تحمل العنوان الصادم والعنيف التالي: «فرنسا وباقي العالم»، كأنهم نسوا أن باقي العالم هو العالم. نسائي اللواتي ينتمين الى باقي العالم يجئن لوحدهن، اللوحة ليست النساء. هي مبنية على النساء، ننسى أحيانا ان الصورة المماثلة في اللوحة قد تكون مكيدة.في كلّ لوحة تجد عشرين لوحة أخرى على الأقل، وما يهمّ مع نسائي هو خبرتهن في الحياة، وما عاشوه قبل ظهورهن في اللوحة، لا أعدو إلاّ أنّ أكون أداة ظهورهن. وليس المهم إطار اللوحة بل عمقها الذي يدفع بالنساء خارج الإطار الذي يحصرهن في لحظة ما، لها ما قبلها وما بعدها».

الفن والسوق.. الازعاج

اختارت منيرة محمد 12 لوحة من بين قرابة 400 لوحة رسمتها في جنيف، يجمع ما بينها رغم اختلاف التفاصيل «حضور المرأة كبداية لتشكيل اللوحة، لكنها في الحقيقة أكثر من ذلك، فالمرأة في هذه اللوحات ليست عنوانا ولا هدفا للعمل بقدر ما هي نافذة على العالم وعلى الحياة فهي العالم وهي الحياة».عن الإبداع تقول منيرة أنّه «لم يجعل لزخرفة الحياة، بل هو جزء من الحياة، لذلك اخترت ان يكون عنوان المعرض «كوني كي تكون الحياة».وتضيف: «يزعجني أن يتواءم الفن مع قيم السوق ويتحول

الى زخرف».ألاحظ لها أنّ الضوء الذي يشفّ من لوحاتها هو ضوء تونس، كأنّها لا تزال هنا، أسألها ماذا عن ضوء جنيف؟تقول ان «الضوء هناك نقي وصاف، في الشتاء يغيب، وتبدأ ليالي الصيف عندنا في التاسعة مساء. وهنا الضوء مبهر. وسأجرب أن أرسم في تونس لأرى كيف سأتعامل مع ضوء بلدي».

كمال هلالي